آراء وأخبار

حول مقالة (الطموح عند المتنبي)

كافور وسيف الدولة في نظر الحق والتاريخ

(أكثر من كتب في هذه الأيام عن المتنبي كان قوله في هذين الرجلين نحواً من أقوال المتنبي فيهما، تأثروا بشعر المتنبي في مدح الاول وذم الثاني . ولم أر فيهم من نصب ميزان الحق بينهما فقال كلمة التاريخ ، بل كلهم أعاد قول الشاعر الذي ينجه جهة الريح ولا يؤخره عن هجاء امرئ في الغد ما أطنب في مدحه أمس . إلا أن أحداً لم يقل فيهما ما قال حضرة الفاضل الذي نناقشه بكلمتنا هذه)

قرأت في العدد العاشر من هذه المجلة كلمة الاستاذ احمد رضا في (روح الطموح عند المتنبي) وقد جره الاسترسال في الكلام - وهو في موقف المؤرخ الأمين - إلى أن يقول ص٣٦٧ من مجلة المجمع لهذه السنة بعد أن أورد طائفة من مدائح المتنبي في كافور :

« يقول هذا وكثيراً مثله فيه وهو العبد الزنيم الذي أذنه في يد النخاس دامية ، وقدره وهو بالفلسين مردود ، ويقبل منه ما لا يقبله من سيف الدولة فيخضع للإنشاد بحضرته قائماً وهو يعلم ان الفرق بين سيف الدولة وكافور علماً وأدباً ونسباً وشرفاً ونوالا كالفرق بين الدرة والبعرة لا يقاس بحد . » اهـ

هذا قول إذ تنكره الحقيقة والتاريخ كل الإنكار ، وما كان لمؤرخ أن يصدر حكما على رجل لقول شاعر فيه ، وضلال كبير أن نعتمد على المتنبي في القضاء بين سيف الدولة وكافور ، بل هو نفسه مدح كافوراً ثم هجاه وقد بالغ في حاليه هاتين مبالغة منكرة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فبأيتهما نأخذ ؟ وإذا ساغ لصاحب الفن المولع بالجمال أن يستعذب أماديح الشاعر أو أهاجيه ، فإن على المؤرخ أن يطرحها طرحاً وألا يقيم لها حساباً إذا علم أنها لا ترجع إلا إلى سرور الشاعر بالعطاء أو غيظه من الحرمان .

وما عيب الشعر العربي بشيء أشنع من أبواب المديح فيه ، وليت الزمن ذهب بهذه الثروة منه صفقة واحدة فأفناها غير مأسوف عليها ، إذاً لقرت عين الأدب والفن والكرامة ولارتفع الشعر عن دركات الاستجداء الشائن .

هذا وأول أدوات المؤرخ التي لا يكون مؤرخاً إلا بها ، التجرد والإنصاف ووزن الاقوال وما لابسها من ظروف ، ثم التروي والاناة والاستقصاء ، حتى إذا اطمأن المؤرخ الى مابذل من جهد أصدر حكمه بكل هدوء ، اصدار من يعرف أن الله سيسأله عن كل حرف سطره : ما هي حجته فيه .

فلاشرع في بيان ما أنكر من هذا القول الذي أتى به الاستاذ :

أ — اما كون كافور عبداً فليس بضائره عند التاريخ الذي لا يحكم على امرئ الا بأعماله ، عبداً كان أو حراً ، وقد تضافرت الشرائع السماوية والوضعية كافة على إسقاط هذا الذي يزعم فرقاً بين خلق الله ، فالعبد كالحر والحر كالعبد في نظر الحق لا يرفع الإنسان الا صالح عمله .

ب — واما كونه زنيما فهذا ما أسأل الاستاذ إقامة البينة عليه من التاريخ ، أسأله ذلك بإلحاف ولا أقيله من الجواب عليه البتة .

ج — وأما التفاوت في الادب فهو صحيح كما ذهب اليه الاستاذ في إثباته ، وأنا أسلمه له مع إبائي أشد الإباء الشكل الذي وردت عليه عبارته .

د — وأما النسب والشرف فعجيب والله ذكرهما على سبيل المفاضلة . نعم كان ذلك في زمن مضى من الجاهلية أو من عصور الجهل والظلم ، فلما أتى الإسلام أبطله وهدمه تهديماً أقر عيون كل منصف حر في أقطار الارض .

ولا تنس ان من اكبر حسنات الإسلام جعله الناس كلهم طبقة واحدة ، وبهذا قضى على ظلم فارس والروم وغيرها من الامم التي كان فيها طبقات ، فيها الملوك وفيها الاشراف وفيها التجار وفيها العبيد . . . وكانت كل طبقة تسوم من دونها سوء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العذاب . فلما رحم الله الناس بالإسلام جهر كتابه بهذه الآية العظيمة الخالدة : (يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله أتقاكم .)

وافرض ايها الاستاذ أن في تقاليد اليوم ما يجعل هذه الفروق معتبرة ، أفيسوغ لك وأنت المؤرخ الباحث ان تدخلها في جريدة الحسنات والسيئات فتجعل النسب مما يتفاضل به الناس في نظر التاريخ ؟

والاسلام هو الذي يقول قرآنه :(تبت يدا أبي لهب) وأنت تعلم ان ابا لهب ينتسب الى اشرف بيت من بيوت العرب ، هو ابن عبد المطلب وعم رسول الله ذروة سنام الشرف وغاية ما يعتز به النسب . وكتاب الاسلام هو القائل في ولد نوح : (يانوح إنه ليس من اهلك إنه عمل غير صالح) فأنت ترى في هذه الآية الفصل فيما بيننا فهي اسقطت نسب الدم واثبتت نسب العمل ، والامر كذلك في الواقع والحق ، فنسب الانسان عمله ولا يخفى على احد الحديث القائل بأن الله أذهب نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب .

هـ - واما قولك : هذا درة وهذا بعرة فهو ما استهجنه كل الاستهجان لانك إن كنت تعني الخلقة فليس امرها الى كافور ولا الى سيف الدولة حتى نعيب الاول بتشويه صورته أو نثني على الثاني بتحسينها ، امر ذلك يا مولاي الى الله ، ومهما ترقى سيف الدولة في مراتب الجمال ومهما تدنى كافور في القبح فانا لا نغفر لك ان تشبه آدميًا بالبعرة والمحاريب يتعالى فيها كل يوم قول الله عز وجل « ولقد خلقنا الانسان في احسن تقويم » وقوله : « ولقد كرمنا بني آدم » .

وإن كنت تعني بتشبيهك هذا بالدرة وذلك بالبعرة فارقًا معنويًا مرجعه الى ما أدى كل منهما لرعيته من خدمة فهذا غير مسلم لك .

وسأثبت لك شهادة المؤرخين في ان الامر على عكس ماذهبت اليه ، وان التاريخ يذكر سيف الدولة في عداد السفاكين الظالمين الذين استحلوا كل ما حرم رسول الإنسانية (ص) في قوله « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » ويذكره مع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الذين اشقوا رعيتهم وفتنوها ، والتاريخ يعد كافوراً في طبقة الملوك الصالحين الحصيفين وهاك براهيني :

١ — قال المؤرخ الذهبي في كافور : « وكان يداوم الجلوس غدوة وعشية لقضاء حوائج الناس ، وكان يتهجد ويمرغ وجهه ساجداً ويقول: اللهم لا تسلط عليّ مخلوقاً » وقال « وكان يرسل كل ليلة عيد وقر بغل دراهم في صرر بأسماء من ارسلت اليهم من العلماء والزهاد والفقراء » .

٢ — جاء في كتاب دول الإسلام ج ١ ص ١٧٣ في حوادث سنة ٣٥٦هـ (وفيها مات كافور وكان عجباً في العقل والشجاعة »

٣ — جاء في وفيات الأعيان في ترجمة كافور : « وكان يدعى له على المنابر بمكة والحجاز جميعه والديار المصرية وبلاد الشام من دمشق وحلب وأنطاكية وطرسوس وغير ذلك ، وكانت أيامه سديدةً جميلةً » .

هذا كافور ، فأما سيف الدولة فإليك شذرات من أقوال المؤرخين فيه :

٤ — جاء في خطط الشام ج ١ ص ٢١٧ : « كان سيف الدولة يسير هو والشريف العقيقي بضواحي دمشق ، فقال سيف الدولة : ما تصلح هذه الغوطة إلا لرجل واحد ، فقال له العقيقي : هي لأقوام كثيرة . فقال سيف الدولة : لئن أخذتها القوانين السلطانية ليتبرّؤنّ منها . فأعلم العقيقي أهل دمشق بذلك ، فكاتبوا كافوراً يستدعونه من مصرَ ، فجاءهم » اه .

٥ — وذكر الأزدي سيف الدولة فقال : « كان سيف الدولة معجباً برأيه محباً للفخر والبذخ ، مفرطاً في السخاء والكرم ، شديد الاحتمال لمناظريه والعجب بآرائه سعيداً مظفراً في حروبه ، جائراً على رعيته ، اشتدّ بكاء الناس منه وعليه » . واذا علمت مصادر هذه الأموال التي كان بها سيف الدولة مفرطاً في السخاء والبذخ لم يعجبك سخاؤه ولا بذخه ، فقد قال صاحب الخطط بعد هذا : « نعم كان سيف الدولة جائراً على رعيته يخرّب قريةً ليجيز شاعراً مدحه بقصيدة » ثم قال : (الخطط ج ١ ص ٢٢٢) « لقد استحلّ سيف الدولة للقيام بهذه الأبهة الضخمة في مملكته الصغيرة مصادرة رعيته ، فكان قاضيه أبو الحصين يقول : « كل من هلك فلسيف الدولة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما ترك » ، ولذلك كثرت مصادرة كل غني من التجار وغيرهم فخربت البلاد الشمالية في أيامه » .

وما أحسن ما ذيّل الأستاذ الكرد علي على كلامه في سيف الدولة حين قال : « وفي باب كرمه غرائب بسطت في كتب الأدب ، وكلها على ما فيها من المفاخر في خدمة اللغة والشعر تحمل في مطاويها مساوئ الظلم وإعنات الرعية ، فسيف الدولة ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً وحسناته اكثر . » اه

وأنا لست من رأي العلامة صاحب الخطط في أن حسناته أكثر لأني ارى جميع هذه الهبات وذلك السخاء المزيف لا يقوم لدرهم واحد يأخذه من رعيته ظلماً ولا ينهض لقطرة دم يسفكها بغير حق . ولا بأس في ان أثبت هنا خبراً نقله الكرد علي نفسه عن ابن حوقل ، ما أظن أن أحداً فيه بقية من إنسانية ورحمة يرضى لنفسه ان يعد سيف الدولة في غير الطغاة العتاة من كبار المجرمين في التاريخ ، لما أتاه من الإجرام الشنيع

٦ — ومن كثرة مظالم سيف الدولة ان بني حبيب وهم ابناء عم بني حمدان ، كانوا ينزلون نصيبين « فأكب عليهم بنو حمدان بصنوف الجور حتى خرجوا بذراريهم في اثني عشر الف فارس إلى الروم وتنصروا بأجمعهم ثم عادوا الى بلاد الإسلام على بصيرة بمضاره وعلم أسباب فساده وقلوبهم تضطرم حقداً » على ما قال ابن حوقل وأخذوا يخربون القرى في الجزيرة والشام وأطمعوا صاحب الروم بأنطاكية وحلب .)

فهل تفي بهذه الوصمة كل ما بعد لسيف الدولة من مآثر وحسنات وعطايا وهبات ، مع فرضنا ان هذه العطايا وتلك الهبات من ماله الحلال لا من أموال الرعية ولا من المظالم والمصادرات .

* * *

أرأيت أيها الاستاذ (رضا) كيف ان سيف الدولة بطأبه عمله ولم يسرع به نسبه وان كافوراً سماء وصاحبك ارض . وقل ذلك في صفة من عمل عمله .

إن العلم والأدب أمانة فلينظر قارئ في كتاب : ماترك مؤلفه من عقله وأمانته وما اخذ ، وليتق الله قضاة التاريخ والأدب فإن المهمة شاقة والحمل ثقيل والناقد بصير .

سعيد الافغاني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net